

جدل دعاوى الحرب والسلام في اليمن



جدل دعاوى الحرب والسلام في اليمن

اليمن في مأزق، هو الأسوأ على الإطلاق، ويتجاوز إشكالية ثنائية الحرب والسلام، وما يترتب عليهما.

منطق وقف الحرب يستند إلى منطقٍ لا تخطئه عين وهو أن هذا النزيف البشري وكلفة الحرب الإنسانية باهظة بشكلٍ لا يحتمل.

يواجه اليمن مخاطر وجودية واستثنائية بسبب غياب قوى سياسية ومجتمعية محلية ذات إرادة وطنية وأفق مستقبلي يستطيع تغيير دفة مسار الحرب أو السلم.

ضعف قيادة الطرف غير الحوثي وتصارع مكوناته، غير ارتهانه للخارج، يجعلان استمرار الحرب مصلحاً تستفيد منها الميليشيات المزدهرة، بالتحديد الحوثي.

* * *

مرّت سبع سنوات من الحرب، ولم تتغير منطلقات الفريقين اليمنيين ودعاؤهما في معاركهما الموسمية

عن أفضل الطرق للخروج من مأزق الحرب والصراع الذي يعيشه البلد.

فبينما ينطلق فريق من أن نقطة البدء هي وقف الحرب، لأسبابٍ تتعلق بالنزيف البشري المستمر وضياع بوصلة المقاتلين ضد الحوثيين، ما يعني أن استمرار الحرب لن يغير حقيقة غلبة الحوثيين العسكرية، بينما الطرف المقابل لا يزال متمسكاً بمنطقه بضرورة توازن القوى، في ما يعني كسر قوة الحوثيين العسكرية المتغلبة، رغم سبع سنوات من اقتتال داخلي وخارجي.

لكلا الحالتين منطقها السياسي ودعاتها الانتهازيون والصادقون، فمنطق وقف الحرب يستند إلى منطقٍ لا تخطئه عين، وهو حقيقة أن هذا النزيف البشري وكلفة الحرب الإنسانية باهظة بشكلٍ لا يحتمل.

خاصة أنها لم تعد تحرز أي تقدّم عسكري يصبّ في صالح نظرية التوازن العسكري، بل إن ضعف قيادة الطرف غير الحوثيين وتصارع مكوناته، غير ارتهانه للخارج، يجعلان من استمرار الحرب مصلحةً تستفيد منها المليشيات المزدهرة، بالتحديد الحوثيين.

والذي يجد في الحرب غطاءً ذهبياً لمنحه الشرعية، وعذراً لإساءته استخدام السلطة وتدهور معيشة الناس، وبالتالي سنوات الحرب ساعدته في تكريس سلطته وفرض أيديولوجيته، بل أُلقت الحرب بعينها على المجتمع اليمني، وسهلت إخضاعه لسلطة الحوثيين.

بما أنه لم يعد من الممكن إصلاح مسار هذه الحرب من خلال تغيير أدواتها وقيادتها بسبب طبيعة القوى الإقليمية المتدخلية والمساندة للمعسكر المعادي للحوثيين، إضافة إلى الإشكالات العميقة التي تعاني منها النخبة اليمنية، كالفساد والانتهازية والعمالة ومحدودية الأفق، على مستوى صفها الأول، وتمتد حتى إلى جزء كبير من صفوفها الوسطى.

لم تنتج انتفاضة 2011، والعملية السياسية القصيرة التي تلتها، ثم السنوات السبع من الاقتتال، أي نخبة شابة أو قيادات كبيرة قادرة على تغيير هذا الوضع المزري، لهذا لم يعد من المجدي الاستمرار في حربٍ صار واضحاً أن نتيجتها تصبّ في صالح طرفٍ ما، ولا شيء يغيّر من هذا المسار.

وبالتالي، يعدّ وقفها مصلحة ضرورية، وإن لم تسفر عن تسويةٍ سياسيةٍ شاملة، لأنها قد تخفّف من حجم المعاناة الإنسانية، وسوف تكشف غطاءً شرعياً واعتذارياً، لطالما استتر وراءه الحوثيين وغيره من المليشيات، لتوضح حجم إفلاسهم السياسي.

يرى الطرف المقابل في الحوثيين آلة حربٍ لن تتوقف، وهي عملياً لم تتوقف منذ بدايتها منذ 17 عاماً، وبالتالي لن توفر جهداً في اختراع أسبابٍ لحروبٍ جديدةٍ مثل قتال تنظيمي الدولة الإسلامية (داعش) والقاعدة وغيرهما.

كما أن الطبيعة التوسعية لجماعة الحوثيين ملحوظة في خطابته وأدبياته وقناعات أفرادها، فهي حركةٌ جهاديةٌ عالميةٌ لا تعترف بحدود اليمن، ناهيك عن الالتزام بأي تقسيم فيدرالي داخل اليمن تحتّمه أبسط تصورات وقف الحرب.

فالحركة تدعو إلى الوصول إلى مكّة وإسقاط حكم آل سعود وتحرير القدس، وهذا أمرٌ ليس من قبيل الدعاية والتشديد، بل هو من قناعاتٍ تحرّك قاداتها والمؤمنين بها، فالجماعة تحرّكها قناعات خلاصية للأمة.

فعبد الملك الحوثي، إضافة إلى أنه شخصٌ معصومٌ عن الخطأ، هو المهدي المنتظر لإنقاذ الأمة بالنسبة لبعض أتباعه، وتنتظر إليه بقية الحركات الشيعية باعتباره "اليماني" الذي ذكر في أحاديثهم النبوية، وهو اليماني الذي يفقد جيش اليمن الذي ينضم لجيش المهدي.

هذه الأحاديث والتصوّرات الدينية حول اليمن باعتبار البلد مركزاً ضخماً للتجنيد فكرة تتشاركها الحركات الجهادية، سواء شيعية أو سنية، مستندة إلى قائمة من الأحاديث النبوية التنبؤية للمهدي أو آخر الزمان وغيرها، والحوثيين ليس استثناء.

إذن، لا تشابه أيديولوجية الحركة، حسب أدبياتها، بقية حركات الإسلام السياسي من إخوان مسلمين أو الثورة الإيرانية التي تحاول أن تطرح تصوّراً إسلامياً للدولة الحديثة بكل قصور التصور المطروح واختلالاته، بل أقرب إلى الحركات الجهادية التي تتمحور حول فكرة الصدام الحتمي والجهاد منطلقاً لحل مشكلات الأمة.

إضافة إلى هذا، وصل الحوثيين إلى السلطة، وحظي باعتراف دولي ضمني من خلال العنف والحرب التي أسست جناحاً مسلحاً ضخماً ومنتشداً عقائدياً ومرتبلاً بقوة بإيران، هذا كله لا يشجّع الحركة وأنصارها للخوض بجدية في أي تسوية، خصوصاً مع التاريخ الطويل لنقض الحوثيين الاتفاقات.

هذه كلها حيثيات مقنعة لضرورة كسر الحوثيين عسكرياً، لكنها تتجاهل حقيقة استحالة كسره عسكرياً

بنخبة وقوى إقليمية متدخلة كهاتين. لذا يبدو في إصرار هذا الطرف لإثبات أن الحرب هي الحل ولا سلام قبل التوازن العسكري فدرا كبيرا من الاستخفاف بوقائع الحال، سواء المتعلق بالوضع الإنساني أو حقائق الوضعين السياسي والعسكري.

الأكثر إثارة للقلق في هذه الدعوى أنها تأتي من كثيرين خارج اليمن. بالطبع، كونهم في المنفى لا يُسقط حقهم في تقديم رأيهم في ما يجري في بلدهم، لكنه قد يشيع شعورا بأن بعدهم عن اليمن يعطيهم رفاة الدعوة إلى حرب معاناتهم منها تظل أقل من معظم من هم داخل اليمن، وهذا يطرح تساؤلاتٍ أخلاقيةً محرجة، وتستدعي حساسيةً شديدة منهم.

استرخاء مقلقٌ في الحديث عن استمرار حربٍ بلا أفق حقيقي، والأدعى هو الحديث عن كيفية صنع أفق مختلف بنخب جديدة، وهذا أمر سيظل متعذِّرا مع استمرار حربٍ ترعاها قوى إقليمية أشاعت أجواء ارتزاق وفساد عطَّلت قوى سياسية ومجتمعية كانت تملك القدرة على تغيير المعادلة ومقاومة الحوثي بشكلٍ يحدِّ فعلًا من سطوته.

على الجانب الآخر، لا يتناسب هذا الحديث التبشيري عن السلام مع واقع الحال. ولدينا الآن في المنطقة نماذج مثل لبنان، الذي يعاني فيه الناس وتحلل الدولة بسبب وجود قوى سياسية متصارعة، وطرف مسلح يفرض وجوده على الجميع.

وهذا وضع ليس حربا، لكنه ينعكس على حياة الناس وأوضاعهم المعيشية بشكلٍ لا يقل سوءًا عن الحرب. كما لا يمكن مقارنة أي مصالحةٍ محتملةٍ بعد الحرب، ومع غلبة الحوثي، بأي مصالحةٍ سابقةٍ مثل التي أعقبت ثورة سبتمبر/ أيلول 1962، حيث كانت الكفَّة العسكرية ترجِّح تفوق طرف قادر على استيعاب الآخرين، بحكم تركيبته وفكره الوطني الشامل.

ولم يكن المتغلب عسكرياً منظومةً عصبويةً بأيدولوجية دينية ضيقة، حتى منطلق إنهاء الحرب بالغلبة لن ينجح كما حدث في حربي 1986 و1994 بكل تداعياتهما الكارثية التي ستعدُّ مزحة مقارنة ما سينتج عن هذه الحرب من غلبة طرفٍ تصوِّراته عن الحكم والدولة اليمنية خطيرة ولا تقل خطورة عن استمرار الحرب.

مهما كان، قد يمكن إنهاء الحرب اليمنية الحوثي بشكل أكبر ليشدُّ قبضته على المجتمع، وربما يغرق البلد في حرب أهلية منسية أكثر مما هي أصلاً، بسبب غياب جزء الإثارة المتعلق بالتدخل السعودي، كما أن السلم، في أي حال، سوف ينتج تحديات حقيقية في وجه المليشيات الصاعدة، في مقدمتها الحوثي،

فتحدّيات الحكم وشرعنة أي حروب أهلية ليست بالهينة، كما أنها قد تفتح أفقا من داخل المجتمع لمقاومة الحوثي.

خلاصة القول، يقع اليمن في مأزق، هو الأسوأ على الإطلاق، ويتجاوز إشكالية ثنائية الحرب والسلام، وما يترتب عليهما، بل يواجه مخاطر وجودية واستثنائية بسبب غياب قوى سياسية ومجتمعية محلية ذات إرادة وطنية وأفق مستقبلي يستطيع تغيير دفّة مسار الحرب أو السلم.

* ميساء شجاع الدين كاتبة وباحثة يمنية

المصدر | العربي الجديد